

الإبداع في تعزيز التواصل الاجتماعي

ظل الانسان منذ البدء يبحث عن وسائل يتواصل بها مع الآخرين، ينقل عبرها أفكاره ومشاعره وتجربته الإنسانية. فكانت اللغة إحدى أهم أدوات التواصل، ثم جاءت الكتابة والفنون والحكايات والموسيقى لتوسع آفاق هذا التواصل وتمنحه أبعاداً أكثر عمقا واتساعا.

وكانت هناك قوة دائما خلف هذه الوسائل جميعا، تمنحها الحياة والتأثير والقدرة على الوصول إلى القلوب والعقول، تلك القوة هي الإبداع.

فالإبداع ليس مجرد إنتاج فكرة جديدة أو ابتكار عمل فني متميز، لكنه قدرة الإنسان على التعبير عن ذاته بطريقة تلامس الآخرين وتفتح جسور الفهم والتفاعل بينهم. ومن هذا المنطلق أصبح الإبداع واحدة من أرقى وسائل التواصل الإنساني وأكثرها تأثيرا، لأنه يتجاوز حدود اللغة المباشرة ليخاطب المشاعر والقيم والتجارب المشتركة التي تجمع البشر مهما اختلفت ثقافاتهم وخلفياتهم.

لقد أثبت التاريخ أن أكثر الأفكار بقاء وتأثيرا لم تكن تلك التي قدمت في صورة معلومات أو تعليمات مباشرة، وإنما تلك التي تجسدت في عمل إبداعي قادر على مخاطبة الوجدان الإنساني. فقصيدة شعر، أو رواية، أو لوحة فنية، أو قطعة موسيقية، أو حتى فكرة مبتكرة في مجال العلوم والتقنية، قد تنجح في بناء حالة من التواصل بين الناس تفوق ما يمكن أن تحققه مئات الصفحات من الشرح والتفسير.

فالإبداع لا ينقل المعنى فحسب، بل ينقل الإحساس بالمعنى. ومن هنا تتجلى أهمية الإبداع في خلق حالة التواصل داخل المجتمعات.

والإبداع يملك قدرة استثنائية على صناعة مساحات مشتركة من الفهم والتفاعل الوجداني، لأنه يسمح للأفراد برؤية أنفسهم في تجارب الآخرين، واكتشاف ما يجمعهم رغم اختلاف ظروفهم ومواقفهم. وهكذا يتحول الإبداع إلى جسر يربط بين الذوات الإنسانية ويقلل المسافات النفسية والاجتماعية بينها.

وفي عالمنا المعاصر، ومع تزايد الانقسامات الفكرية والثقافية وتزايد حدة الاستقطاب، تبرز الحاجة إلى الإبداع بوصفه أداة لإعادة بناء التواصل الإنساني. فالإبداع الحقيقي لا يكتفي بعرض الاختلافات، بل

يسعى إلى فهمها وتقديمها ضمن إطار إنساني يسمح بالحوار والتقارب. ولهذا كانت الفنون والآداب عبر العصور من أهم الوسائل التي أسهمت في تعزيز التفاهم بين الشعوب والثقافات. ويمتد دور الإبداع إلى تعزيز التواصل بين الأجيال أيضا. فالشعوب تنقل خبراتها وقيمها ورؤاها المستقبلية من خلال أعمال إبداعية تحفظ الذاكرة الجماعية وتعيد إنتاجها بصورة تلائم كل عصر. وما التراث الإنساني العظيم إلا سلسلة متصلة من الإبداعات التي حملت تجارب البشر من جيل إلى آخر، وحافظت على استمرارية الحوار بين الماضي والحاضر. فالإبداع يقدم أفكارًا وصيغًا جديدة (قصة، سؤال ذكي، تصميم، فيديو قصير، موقف طريف) تلفت الانتباه بسرعة ويزيد التفاعل. وعبر إيصال المعنى بشكل أوضح، فأحيانا تكون الفكرة معقّدة، فيساعد الإبداع على تبسيطها عبر: أمثلة واقعية وتشبيهات وغيرها، إضافة إلى بناء علاقة وثقة، فعندما يعبر الشخص بإبداع عن اهتمامه يشعر الطرف الثاني بالتقدير، فتقوى العلاقة ويقال سوء الفهم. ويساهم كذلك في تنمية الهوية والتميّز، وتحفيز المشاركة والنقاش عبر الرسائل الإبداعية التي تخلق مساحة تفاعل.. فينتج عنها حوار بدل ردود جامدة، ويمنح الإبداع الإنسان القدرة على التعبير عما تعجز عنه اللغة المباشرة أحيانا، ويتيح للآخرين فرصة فهم ما يصعب شرحه بالكلمات وحدها.

ويحتاج الإبداع إلى طاقة إنسانية أساسية هي الخيال. فالخيال هو المجال الذي تتشكل فيه الاحتمالات الجديدة، وتحرر فيه الأفكار من قيود الواقع المباشر. ومن دون الخيال يصبح الإنسان أسير ما هو قائم، عاجزا عن تصور ما يمكن أن يكون. ولهذا ارتبط الإبداع دائما بالقدرة على رؤية العالم بصورة مختلفة، واستكشاف إمكانيات جديدة للتعبير والفهم والتواصل.

إن المجتمعات التي تشجع الخيال وتحترم الإبداع وتحثي بالسرد الإنساني هي مجتمعات أكثر قدرة على التواصل والتفاهم والتجدد.

وكلما اتسعت مساحة الإبداع في المجتمع، اتسعت معها مساحة الحوار والتسامح والتعاون. فالإنسان قد يتحدث بالكلمات، لكنه يتواصل بالإبداع، لأن الإبداع هو اللغة الوحيدة التي يفهمها الجميع، مهما اختلفت الألسن وتباعدت المسافات.